صور من التاريخ الاسلامى

أم المؤمنـــين
خديجة بنت خويلد

للاستاذ عبد الحميد العبادى

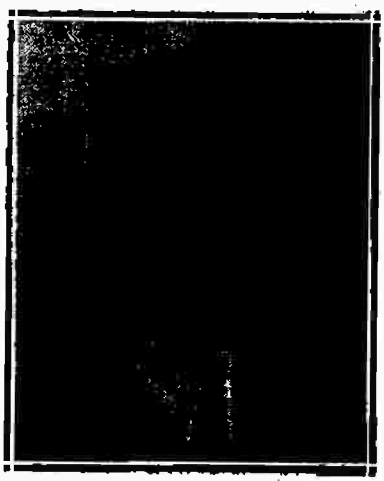

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ، جزل الألفاظ ، سرى المعانى : إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة فى أشرف معانيها

ولكن صاحب هذا المقال ، وا أسفاه ! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذى يتمنى أن يكونه . إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذى همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقنع القارئ الكريم بالصورة المجملة التى أرسمها فى هذا المقال ، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الالياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه

* * *

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس الميلادى قد أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التى تمخض عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك التهيؤ فى جميع مناحى الحياة العربية العامة ، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية . ونحن انما تهمنا فى هذا المقام الناحية الاجتماعية ، ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة . كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول فى حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة الى النحو الذى أقره فى جملته الاسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الازدواج القديمة التى اعتبرها الاسلام سفاحا ، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضى والتعاقد . وصاحب هذا التطور الخطير فى بناء الأسرة تطور خطير مثله فى مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الأرث ، بل بعد أن كانت هى نفسها تملك وتورث فى بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف فى مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا فى الحياة المكية العامة قبيل الاسلام وفى عصر النبوة

* * *

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور ، وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان خويلد ممن قاد قريشا فى حرب الفجار ، ثم هى ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبى يقول فى جدها عمرو بن ختتر المزنى أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمى الى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى ابن قصى ، والى قبيلة من أعز قبائل مضر هى عامر بن لؤى ؛ وا كتنفت عمود هذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى فى صنيعه لبنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش فى الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان ممدودا فى تلك العصبة المستنيرة التى يعرف آحادها باسم (المتحنفين) قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوارة والانجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة فى ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « ممن ينظر فى الكتب » على حد تعبير القدماء ؛ ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد

بير بن العوام حوارى رسول الله

فخديجة من أوسط نساء قريش نسباً ، كما يقول مؤرخو العرب ، واذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة فى هذا المقام ، فانا نقول انها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ووفاء وشجاعة ؛ كما لقفت عن عمومتها تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الاسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر

***

تزوجت خديجة مرتين فى مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمى . ثم توفى أبو هالة ففقدت أيما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثاً فيا رأت أن تقوم على استغلاله فى التجارة التي كانت مرتزق قريش فى ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح

لكن خديجة الحسيبة النسيبة ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفاً فى النساء ، عوانا بين الشباب والكهولة ، قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهى سن لها عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذة ، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة منها فى العزوبة ، فهى أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن الأيدى التى كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذى يعجبها . لقد نضج عقلها ، وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل ، .ومن لها بالعقل الراجح ، والقلب الكبير فى مجتمع خشن ، كثيف ، غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربى الجاهلى بما ينطوى عليه فى واقع الأمر من بداوة وأعرابية ، لا يمكن أن تنئ منهما إلى ظل ظليل

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق فى أفق المجتمع المكى ، ويوشك أن يتكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نوراً هادياً . وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال . انها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا ، ولكن كل مخايله كانت تؤذن فى نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله

كان محمد اذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ، مشرق الطلعة ، نبيل المظهر ، كريم المخبر ، وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره . كان زاهداً فى الناس ، عزوفاً عنهم ، إلا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة ، نزوعاً الى التفكير ، محباً للعزلة ، قادعاً للشهوة رادعاً للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنسه فى وحشته وانبساطه فى انقباضه ، وغناه فى اقلاله . قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم أن تتجاوز هذا الحد فتنغص عليه نعمة باله ، وتفسد عليه هدوء سربه

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً عند ما كانت تلمح هذا الفتى العجيب ، يروح لطيته ويغدو فى طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولكن كيف تفضى اليه بدخيلة نفسها ، وتبثه لاعج حبها ؟ إن الحسب ، والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هى التى تخطو فى الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى . لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج . فلتتسر فى الأمر بحذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها

إنها كانت تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح ، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذى كانت تجعله لغيره ؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ؛ فوسطت الى محمد من عرض عليه رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر الى الشام فى صيف عام ٥٩٤ متجراً فى مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى الى السيدة عند عودته جلة حاله فى السفر ، فتلم بجملة حاله فى السفر والحضر . وباع محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث اليهم ، وتحدثوا اليه ، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً ، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد فى السفر من رقة الشمائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ؛ فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها ؛ فقطعت كل تردد ؛ وأجمعت أن تخطو

هي الخطوة الأولى ، وتقول هي الكلمة الأولى . وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه ، فدستها الى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة — يا محمد : ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد — ما بيدي ما أتزوج به !

نفيسة — فان كفيت ذلك ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟

محمد — فمن هي ؟

نفيسة — خديجة !

محمد — وكيف لي بذلك ؟

نفيسة — علي !

محمد — فأنا أفعل !

لا شك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف ، وتقديراً بتقدير . نعم انها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس الى محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه ، وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

* * *

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والاخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر في محمد كرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والاعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته في منزله ، ومطابقته فيما يحب وما لا يحب ، ولا ننس أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق ، فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم ، ولا كل الشراب يشرب ، ولا كل الملبس يلبس ، ولا بكل الزينة يزدان ، ثم هو ميال بطبعه الى العزلة ، مؤثر للصمت ، مطيل للفكر ، فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويراعاه له ، وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتم رعاية ؛ فلا شك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل ، والتمر المنقوع في اللبن أو المخلوط بالقثاء أحياناً ، ولا شك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه ، كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه ، فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملبس ، ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء في المنزل ، واذا جنح الى الخلوة أو التحنث في الغار لم تقطع عليه سكونه ؛ بل أعانته على ذلك بأعداد الزاد الذي يحتاج اليه ، فاذا طالت غيبته افتقدته في غير إزعاج له ، ولا تكدير لصفو نفسه

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها ، فانها كانت مثال الأم العنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى ، ثم ولدت له زينب ورقية ، وفاطمة وأم كلثوم ، وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة ، ثم ولد له في الاسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والطاهر ، وقد مات الغلامان صغيرين ، أما البنات فكلهن أدركن الاسلام وتزوجن وهاجرن ، وقد انضم الى هؤلاء علي بن أبي طالب ، ضمه النبي الى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب الذي كان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ؛ غير أن ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم ، وتعد ذلك قبل ولادها » ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها ، فهي التي أشارت على النبي بأن يزوج سعد بن الربيع من بنتها زينب ؛ فلما زفت اليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره . ثم إن كل من أصهر الى محمد سعد بزواجه ، فسعد بن الربيع أبى أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله على طلاقها نكاية في محمد مع أن سعداً لم يكن قد أسلم بعد ، وقد تزوج عثمان بن عفان رقية ، فلما توفيت ورآه النبي حزيناً مهموماً لهفان زوجه اختها أم كلثوم ، وكانت فاطمة عند زوجها علي بن أبي طالب بالمحل الرفيع ، والمكان الممتاز

* * *

لكن فضل خديجة الأكبر ، وذخرها الخالد خلود الزمن ؛ إنما هو فى موقفها من زوجها عند ما نبئ ، ومن الدعوة الاسلامية التى أخذ يدعو اليها ، بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها

لقد أصبح محمد بعد زوجه من خديجة هادئ البال ، ناعم البال ، وأصبح له منزل وأهل يسكن اليهما فانصرف الى ما كانت تصبو اليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر ، فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أى ترى فى مسلكه بأساً . فلما جئ الوحى محمداً ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة ، ورجع الى منزله رعباً حائراً وقال لها : « لقد خشيت أن يكون بى جنن ! » لم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده ، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة « والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . الخ » ثم إنها انطلقت من فورها الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقصت عليه خبر زوجها ، فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد انما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى ، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها ، فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به ، روى الطبرى باسناده الى عفيف الكندى أنه قال : « كنت امرأ تاجراً ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس ، فبينا نحن عنده اذ خرج رجل يصلى ؛ فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت : ياعباس ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبى طالب آمن به . قال عفيف : فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فكنت أكون ثانياً »

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً ، ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها بزوجها الا شدة ، فكانت فى السنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات الى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه ، روى ابن الأثير باسناده فقال : « وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه الا فرج الله عنه بها ، اذا رجع اليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس »

ولم تتردد خديجة عند ما جد الجد ، أن تشرك زوجها فى محنته ، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعند ما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خديجة فى الشعب تقاسى ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها . فلما فاءت قريش الى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين ، كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش الا قليلاً ، وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة ، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً ، وقد دفنها الرسول بالحجون ، وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام عمه أبا طالب ، وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان ، ورزآن بالغان ، ولكن لا شك فى أن داخل رزئيه كان الأفدح ، وباطن جرحيه كان الأدمى ؛ لقد تهدم صرح سعادته المنزلية ، وغدت الحياة مشغلة له فى الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله فى الداخل والخارج

* * *

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن احسانه ، وأكرم من ألا يفى لحبيب صدقه الحب ، وأصفاه الود ، ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثرى ، وكذلك كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها فى حالى الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها فى حياتها ، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه ، وهم يروون فى ثنائه عليها ودوام تذكره لها أخباراً كثيرة . يروون أنه فضلها هى ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لاصخب فيه ولا نصب ، وأنه عند ما أرسلت اليه ابنته زينب بقلادة فلدتها اياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها سعد بن الربيع وكان قد أسر ببدر ، رق النبى لذلك رقة شديدة ، وطلب الى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان اذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)